صالح محمد الهلابي

الزلزال يضرب

رواية

دار البسمة للنشر الإلكتروني

الزلزال يضرب

اسم الكتاب: الزلزال يضرب
اسم الكاتب: صالح محمد الهلابي
نوع العمل: رواية
الرقم الدولي EBIN: 16-1-396-250815
الناشر: دار بسمة للنشر الإلكتروني
الطبعة الأولى: 2023م
الطبعة الثانية: 2025م
رقم الإيداع: ١٤٤٦/١٨٢٥٣
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٥-٦٩٣٤-٢

دار بسمة للنشر الإلكتروني

00212771814934
داربسمة للنشر الإلكتروني (المغرب)
Darbassma1@gmail.com
المملكة المغربية

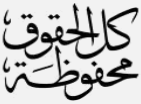

دار بسمة للنشر الإلكتروني تُقدم جميع خدمات النشر، ولا تتحمل أي مسؤولية تجاه المحتوى، إذ إن الكاتب وحده هو المسؤول عن نتاج فكره.. كما لا يجوز بأي صورة نشر أو إعادة طبع أي جزء من هَذَا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله عَلَى أي نحو كَانَ، أو بأي طريقة سواء كَانَت إلكترونية أو بالتصوير أو خلاف ذلك، إلاّ بموافقة خطية من الناشر أو المؤلف. ©

الزلزال يضرب

(رواية خيالية عن أحداث واقعية)

رواية

صالح محمد الهلابي

دار البسمة للنشر الإلكتروني

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى تلك النفوس التي

فُقدت في زلزال أطلس الكبير.

2023/10/1

فائدة لغوية

لا تقُل:

الزلزال وقع

بل قل:

الزلزال ضرب

1- باريس

20 مايو 2023م

في ممرات كلية الاقتصاد بجامعة السوربون، باريس مع اقتراب المساء، خفتت الأصوات وتسللت العتمة إلى أروقة المبنى العريق، إلا من بصيص ضوء خافت ينساب من تحت باب مكتب الدكتور فرنسيس. اقترب ناصر بخطًى مترددة، كأن الأرض من تحته تراقب اضطرابه. وقف أمام الباب، طرقه بخفة، وانتظر.

«تفضل بالدخول»، جاء الصوت من الداخل، هادئًا، حاسمًا.

فتح ناصر الباب، ليجد الدكتور فرنسيس يبتسم:

«مرحبا بك يا ناصر... تفضَّل، اجلس».

ناول ناصر أوراقه، فتناولها الدكتور بهدوء وبدأ بتصفحها دون استعجال. خلع نظارته السميكة. بعد قليل، نهض، واتجه إلى خزانة الكتب الصغيرة خلفه. انتقى منها كتابا سميكًا وناوله لناصر.

«**عنوانه: التغيرات المناخية وتأثيرها على الاقتصاد السياسي.** أعتقد أنه قد يهمك».

جلس ناصر يتصفح الكتاب على استحياء، بينما كان الدكتور منشغلًا بجواله. مر الوقت بثقل، كأن عقارب الساعة تعاقبه. ثم قطع ناصر الصمت، بصوته الهادئ:

«عنوان الكتاب ممتاز، لكن هل هو مرتبط فعليًّا بالبحث الذي سأقوم به؟»

وضع الدكتور جواله على المكتب، ورفع فنجان القهوة البارد إلى شفتيه. ثم رد:

«أنت طالب في السوربون، يا ناصر. بحث الدكتوراه ليس لتزيين الرفوف، بل ليكون أداة للتغيير. **نحن نكتب ما يقرأ في قاعات القرار، لا ما ينسى بين الغبار**».

بلع ناصر ريقه، ثم تمتم:

«و... البحث الذي عملت عليه طوال الفترة الماضية؟»

«جهدك مقدّر، لكنه لا يتجاوز كونه تمرينًا أوليًّا».

احمر وجه ناصر، شعر بحرارة خيبة الأمل تسري في جسده، لكنه كتم غضبه. فقط نهض، محاولًا الانصراف. لكن الدكتور استوقفه، بلطف مفاجئ:

«اقرأ الكتاب، وسنناقشه معا لاحقًا».

خرج ناصر من المكتب، مشتت الذهن، يحمل الكتاب كمن يحمل صخرة على صدره. الغلاف الكئيب والصفحات التي تجاوزت الألف كانت أشبه بقنبلة موقوتة بين يديه. كلما حاول فتحه، شعر بنفور داخلي، وكأن الكتاب يرفضه بقدر ما يرفضه هو.

في صباح اليوم التالي

استيقظ على صوت المنبه، فرك وجهه أمام المرآة، وظهرت له ملامح أمه بين الظلال، تلك التي تحلم أن تراه دكتورا من باريس. توتره يتسلل من عينيه، حتى نسي حلاقة ذقنه.

جلس في مقهى الكلية، وضع الكتاب أمامه كجدار صد. مرت بجانبه زميلته دانيل، بكامل أناقتها الباريسية المعتادة. ابتسم لها، وأشار إلى الكرسي المقابل.

جلست برِقَّة، فتصفحت الكتاب بهدوء، بينما كان ناصر يراقبها بصمت، يحتسي قهوته المرَّة.

قالت أخيرا:

«هذا من أهم الكتب الحديثة في الاقتصاد. قرأت ملخصا عنه، والمراجعات مشجعة جدًّا. إذا أنهيته، هل تعيرني إياه؟»

ابتسم ناصر، ثم ضحك فجأة. رفعت دانيل حاجبيها بدهشة.

«ما الذي يضحكك؟»

«في ثقافتنا نقول: شر البلية ما يضحك... أي إن بعض المصائب لا تملك إلا أن تضحك لها، حتى وإن كانت تبكيك».

نظرت إليه بدهشة أكبر:

«لا أفهم ما تعنيه؟»

أجاب بصوت خفيض:

«بدأت فكرة رسالتي مع الدكتور فرنسيس منذ أكثر من شهرين... واليوم غيَّر مسارها بالكامل. طلب مني قراءة هذا الكتاب، ولم أستطع أن أقرأ منه حتى صفحة واحدة. شعرت بالغربة... كأنني دخلت عالما لا أنتمي إليه».

ابتسمت دانيل، ووضعت يدها على الطاولة برفق:

«ناصر... في مرحلة دراسة الماجستير كنت الأول على دفعتنا، الكل يعرف دقتك العلمية ومنهجك الرصين. لا أحد تفوق عليك، ولهذا اختارك الدكتور فرنسيس».

«لكنه مثل باقي الأساتذة، متطلباته غير واضحة...»

«أنت مخطئ. نحن جميعا ندرس التخصص نفسه، في الجامعة ذاتها، لكن مشرفك ليس عادياً. إنه أحد أعمدة الاقتصاد في أوروبا. وعندما تنهي رسالتك معه، لن تُخزن في المكتبة، بل ستَنشر وتَدرس وتَترجم».

«وماذا سيعود علي؟»

«ستخرج من تحت يديه عالماً مميزاً، تتسابق الجامعات على استقطابك. أنت لا تعرف قيمتك بعَد، يا ناصر».

ثم نهضت وهي تلتقط حقيبتها:

«أما نحن... فنبدأ من حيث تنتهي أنت».

تركت كلماتها أثرا عميقاً في نفسه، كأنها فتحت نافذة كان قد أغلقها بالأمس. نظر إلى الكتاب من جديد، هذه المرة دون رهبة. فتح الصفحة الأولى، وتلاها بصوت منخفض لنفسه. شيئا فشيئا، انساب النص في ذهنه كجدول عذب. راح يدون الملاحظات، واندمج في القراءة.

عندما غادر الجامعة مساء، كانت خطواته واثقة، بعكس خطواته المترددة يوم أمس. بدا كأن داخله قد تغير، كأن دانيل لم تعطه رأيا فحسب، بل أعادته إلى نفسه.

2- باريس

كلما توغل ناصر في صفحات الكتاب، ازدحمت الأسئلة في ذهنه كأنها موجات متلاحقة تضرب شاطئًا هشًّا.

كل فقرة يقرؤها تَشعل فيه ومضة، وكل ومضة تفتح بابا جديدًا للتفكير. كان المؤلف يلح على محور واحد، الانبعاثات الحرارية الناتجة عن الوقود الأحفوري. بدا له ذلك اختزالًا ساذجا لقضية معقدة. وبدلًا من الاستسلام، بدأ ناصر في تدوين ملاحظاته، استند فيها إلى وثائق رسمية ودراسات بديلة، بعضها من منظمات دولية مرموقة.

قرأ الكتاب مرة... مرتين... ثم بدأ يخطّ مسوَّدة نقد علمي، لم يدرك أن أفكاره قد تبلورت إلا حين رأى صفحاتها تزداد، وصفحاته الداخلية تنقشع.

ولم يخطر في باله أحد يمكن أن يشاركه هذه الولادة الفكرية سوى دانيل. أرسل لها المسودة عبر البريد الإلكتروني، وبحسها الأكاديمي السريع، قرأتها وطلبت لقاءه... لكن هذه المرة، خارج أسوار الجامعة.

اختارت دانيل مقهى يطل على نهر السين، حيث ضوء المساء يتراقص فوق الماء، وبرج إيفل يرسم خلفية صامتة للمشهد.

وصل ناصر متأخرا قليلاً، ووجد دانيل بكامل أناقتها تجلس بصحبة رجل غريب عنه. تقدم بخطًى مترددة، وقبل أن يسأل، ابتسمت دانيل:

«أعرفك على فرانك، صديق قديم وخبير بيئي يعمل مع الأمم المتحدة. دعوته اليوم لنتبادل الرأي بشأن ما كتبته».

صافح ناصر الرجل بحرارة حذرة، ثم جلس قبالتهم، تطلعت عيناه إلى النهر كمن يبحث عن مرآة لروحه المتعبة.

بعد لحظات من الصمت المهذب، قال ناصر، وهو ينظر إلى دانيل:

«ما كتبته نابع من قراءة محايدة. أعلم أن بعض الكتّاب ينطلقون من دوافع أيديولوجية، تفتقر إلى الموضوعية، وقد بدا لي أن المؤلف يجنح لهذا المنحى».

رفعت دانيل فنجان الإسبريسو إلى شفتيها، وقالت بنبرة حانية لكنها مباشرة:

«هل تسمح لي أن أكون صريحة؟ ربما لا يعجبك رأيي».

«بالطبع، رأيك مهم بالنسبة لي».

«أنتم الشرقيين كثيرا ما ترون في كل تحليل غربي مؤامرة، وهذا يربك تقييمكم للحقائق. قرأت مسوَّدتك، وأعجبتني بعض النقاط، لكن شعرت أنك ذهبت بعيدًا في تفسير النوايا».

تدخل فرانك بهدوء ودبلوماسية:

«قرأت هذا الكتاب من قبل، وأعرف مؤلفه شخصيًّا. هو مستشار لحزب معارض معروف بتوجهاته الحادة، لكنه نجح في تسليط الضوء على قضية حقيقية، حتى وإن افتقرت أدواته إلى الاتزان الكامل».

نظرت دانيل إلى ناصر وقالت:

«نحن نرى فيك مشروع باحث متميز، لكننا نحتاج إلى توجيه بوصلتك، لا أكثر. أخبر فرانك بما تشعر».

قال ناصر بصدق:

«أنا قادم من خلفية هذا المجال (البيئة والمناخ) جديد علي. أشعر أنني تائه وسط مصطلحات لا تنتمي لعالمي».

هز فرانك رأسه بتفهم:

«ما تقوله طبيعي. لكن اسمح لي أن أقول شيئا. معظم الدراسات البيئية تركز على الأثر الصحي والاجتماعي. لكن الجانب الاقتصادي مغيب إلى حد بعيد. إذا قررت أن تستمر في هذا المسار، أطلب منك طلبا واحدا فقط».

«تفضل، أنا أستمع».

«ركّز على العلاقة بين التغير المناخي واتساع رقعة الفقر، خاصة في الدول المتأثرة. هذه زاوية جديدة، ومهمة للغاية».

التفت ناصر إلى دانيل وكأنه يبحث عن تأكيد:

«ما رأيك؟»

ابتسمت دانيل، وقالت بثقة:

«نحن ندرس علما جامدًا، الاقتصاد السياسي، حيث ينظر للإنسان كرقم في معادلة. لكنك الآن أمامك فرصة لتوسيع هذه النظرة، وربطها بالواقع الإنساني. أقنع الدكتور فرنسيس بهذه الرؤية، وسيفتح لك الباب».

«هل تتوقعين أن يتقبل ذلك بسهولة؟»

«الدكتور فرانسيس يقدّر الفكر النقدي، وقد أحسن اختيارك. ما كتبته في المسوَّدة جيد، والأهم أنك تملكه بالدليل والمنهج».

مدّ فرانك مجموعة من مطبوعات الأمم المتحدة، ووضعها على الطاولة أمام ناصر:

«هذه ستفيدك كثيرا، وستمنحك زاوية تحليل جديدة».

غادرا المقهى، وظل ناصر وحده، يتأمل صفحات الوثائق، ويشرد بنظره في النهر. لم يكن وحده تماما، كانت فكرة جديدة تولد في أعماقه.

أغمض عينيه للحظة، وبدأ يرسم في ذهنه سيناريو قد يرضى عنه الدكتور فرنسيس...

3- باريس

دلف ناصر إلى مبنى الكلية بخطًى هادئة، يحمل بين يديه ورقة العمل التي صاغها بعد ليال من التفكير والبحث.

كان مكتب الدكتور فرنسيس مفتوحا، لكن الكرسي خلف المكتب خال. انتظر دقائق مضطربة قبل أن يظهر الدكتور وهو يحمل كوب قهوته الساخنة، يتسلل منه بخار خفيف في هذا الصباح الباريسي البارد.

ابتسم الدكتور فور رؤيته لناصر، وسار نحوه بخطوات سريعة:

«ناصر! تفضل، ادخل».

جلس ناصر بهدوء، ومدّ الورقة إلى الدكتور الذي تناولها بعناية، ثم انهمك في قراءتها. راقب ناصر نظرات أستاذه، يترصد تغير ملامحه، حركات حاجبيه، وتوقف أنفاسه للحظة.

كان في تلك اللحظات يقرأ صمته، قبل أن يقطع الدكتور الهدوء:

«ما رأيك بالكتاب الذي طلب منك قراءته؟»

«من أي زاوية تقصد؟»

«من حيث فكره. طريقة تحليله».

«الكتاب مهم بلا شك، لكنه يحمل رؤية أيديولوجية أراد تمريرها بين السطور. تحليل علمي مشوب بنَفَس سياسي».

ابتسم الدكتور، ورفع ناظريه:

«رائع. لو طُلب منك اختيار زاوية واحدة تدرسها من تأثير التغير المناخي، ماذا ستختار؟»

فكر ناصر للحظات، ثم أجاب بثقة:

«الجفاف وتراجع الأمطار... وتأثيرهما على الاقتصاد السياسي».

«عنوان مثير للاهتمام. اكتب خطة مبدئية، وقدمها لي. وبعدها نعرضها على مجلس القسم».

«كم مساحة الوقت المسموح لي بها؟»

«الوقت بين يديك. لكن كلما أسرعت، كان أفضل».

خرج ناصر من المكتب يحمل فكرة، لكنها ما زالت في طور الولادة، خاما. اتجه إلى مكتبة الجامعة، نبش في الأرفف، وتصفح المقالات والأبحاث، لكن أغلبها كان من زاوية بيئية بحتة، أو من منظور صحي، لا يمت بصلة إلى حقل الاقتصاد السياسي. خرج من المكتبة مثقلاً بخيبة أمل.

رجع لمسكنه، لم يجد سوى النوم مهربا من عجزه المؤقت. وفي قبيل الفجر، استيقظ كمن انبعث من رماد حلم باهت. حضر قهوته السوداء، وجلس في العتمة، يكتب أفكاره بشراهة. الكلمات تتدفق، والجمل تتلاحق، والأفكار تتناسل كأنها تطارد الضوء في نفق ضيق.

بعد ساعات من التفكير والضغط، شعر بالإرهاق، وكأن رأسه لم يعد يحتمل فكرة واحدة إضافية. تمدد على سريره، واستسلم لنوم خفيف، هرب فيه من كل شيء... حتى من نفسه.

رنّ جواله فجأة، كان صوته حادًّا في سكون الفجر.

نظر إلى الشاشة: «أمي».

فتح الرسائل الصوتية، وإذا بها توبخه على انقطاعه، ثم تعود لهجتها القديمة، تهاجم والده، الذي تركها منذ سنوات، تعيش على ذكرى خلاف لم يطفأ، تضرم نيرانه كلما اشتعل بها الحنين أو الغضب.

كلماتها قاسية، رغم أنه يعرف جيدًا أن والده رجل هادئ، مسالم، فضَّل العزلة على الخصام، والزراعة على الجدال.

ردّ عليها برسالة صوتية دافئة، شرح فيها انشغاله بالدراسة، وداعب قلبها بكلمات فخرها به، وأعاد رسم الحلم الذي تعيش عليه:

«ابنك سيعود بشهادة الدكتوراه من جامعة السوربون».

ردّت عليه بالدعاء. كأن تلك الرسالة أعادت التوازن لروحه، ولو مؤقتًا.

لكنه يعلم أن والدته لا تنسى شيئاً. لديها قضيتان لا تتعب من تَكرارهما: خلافها مع والده... وزواجه المؤجَّل.

وكلما أغلق باباً، فتحت نافذة لتهريب همٍ آخر. كلما حاول تأجيل فكرة الزواج حتى يفرغ من دراسته، باغتته بعرضٍ جديد، وخيبة جديدة حين يسمع منها تأنيب التأجيل.

ابتسم وهو يتأمل الفراغ حوله، كأنه يهمس لنفسه:

«دكتوراه أولًا... ثم نفتح الملفَّات الأخرى».

4- باريس

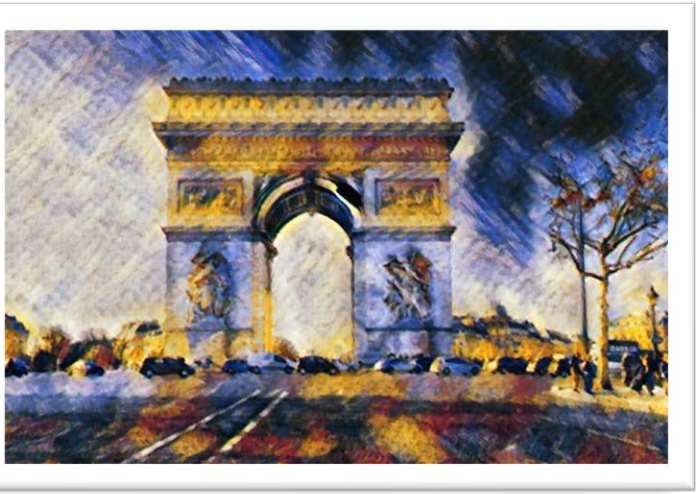

وقف ناصر أمام باب مكتب الدكتور فرنسيس، يحمل بين يديه خطة البحث التي أمضى أياما في صياغتها.

لم يكن القلق باديا على وجهه، فقد ارتدى بدلة سوداء رسمية، وربطة عنق بسيطة، لكنه من الداخل كان يخفي قلقًا مكتوما، كأن قلبه يقف على حافة امتحان وجودي.

دخل قاعة المناقشة بثقة مصطنعة. اللجنة مكونة من الدكتور فرنسيس واثنين من كبار الأساتذة في القسم. بدأ العرض، بصوت هادئ، منظم، كأنه يلقي محاضرة على جمهور واسع، وليس أمام لجنة من العقول الحادة.

ابتسم الأعضاء، علّقوا بلطف، ولم يظهروا معارضة مباشرة، حتى حانت لحظة التوصيات.

قال أحدهم بنبرة جادة:

«لكي يكون بحثك ذا مصداقية، نحتاج إلى أرقام من واقع ميداني. عليك أن تزور إحدى الدول المتأثرة بالجفاف، مثل النيجر، أو مالي، أو تشاد».

كأن السقف انخفض فجأة على رأس ناصر. جلس مطأطئ الرأس، لا يرى أمامه سوى غموض المستقبل.

شعر بيد دافئة تربت على كتفه، رفع عينيه، فإذا بالدكتور بفرانسيس يهمس له:

«أنت قوي، لا تنكسر من أول امتحان».

«هل هناك بدائل؟ السفر لدول مثل هذه، أمر صعب عليَّ».

«غدًا نناقش الأمر».

في طريق العودة إلى سكنه، كانت باريس جميلة كعادتها، لكن قلبه مثقل، كأن المدينة كلها تصرخ في وجهه: «الطريق صعب... لا مكان للضعفاء هنا».

تقلّب في فراشه طوال الليل، لم يكن الفشل خيارا بالنسبة له، لكنه بدأ يشعر بأنه قريب جدًّا منه.

نام أخيرا، لكنه استيقظ فزعا من حلم رأى فيه نفسه يرفع الراية البيضاء داخل أروقة الجامعة، بينما الأساتذة ينظرون إليه ببرود.

توضأ وصلى الفجر بخشوع، وكان صوت أمه في ذاكرته لا يفارقه:

«أنت الأمل المشرق في حياتي».

نهض، ارتدى ملابسه على عجل، وذهب إلى مكتبة الجامعة. عند المدخل التقى زميلته مارسيل، تمنت له صباحا سعيدا، وأخبرته أن الجامعة ابتعثتها إلى أمريكا الوسطى لدراسة الوضع الاقتصادي هناك.

تمنى لها التوفيق، لكنه بدا مشوشا.

فكّر في الثقة التي شاهدها عند زميلته مارسيل، تساءل في نفسه:

«فتاة تسافر إلى مناطق فيها توترات أمنية، ولا تتردد، وأنا أضعف من اتخاذ قرار السفر؟»

لحظات بعد ذلك، ظهر الدكتور فرنسيس في المكتبة، كأن القدر رتّب له هذا اللقاء. دعاه إلى غرفة جانبية، وهناك دار حوار صادق، خارج الرسميات:

«ناصر، أنت باحث مميز، أعلم أنك صدمت، **لكننا كأساتذة أحياناً نطلب من طلابنا المستحيل... لكي يحققوا الممكن**».

«كلامك يحمل غموضاً».

«نسيت، لا تنادني بلقب دكتور، اسمي فرانسيس فقط».

«عذرا... نسيت».

«تذكّر: الممكن لي... غير الممكن لك».

«ولماذا نسعى للمستحيل إذاً؟»

«لأنه لا توجد لدينا أداة لقياس الممكن».

«بعض الطرق خطرة... لماذا نغامر بها؟»

ضحك الدكتور فرانسيس حتى كاد يختنق، وقال وهو يحاول استعادة وقاره:

«يا ناصر، الزملاء في اللجنة وضعوا العراقيل لأني مشرفك، وهي لعبة قديمة بيننا. لكن تذكر، اللجنة طلبت *دولة* إفريقية، لم تحدد اسمها. الدولة خيارك... حسب ما يناسبك».

«لكنهم رشّحوا النيجر ومالي وتشاد!»

«وأنت لست الأمم المتحدة. اختر ما يناسبك، الهدف أن تكون الدولة متأثرة بالجفاف. هذا كل شيء».

«ما المدة المطلوبة للدراسة الميدانية؟»

«قرابة مئة يوم فقط. لا أكثر».

«لكن... أحياناً يوم واحد يكشف ما لا تكشفه أشهر».

ضحك الدكتور فرانسيس مجددا، وناصر شاركه الضحك حتى جف ريقه، فخرج يبحث عن ماء، وعاد ليجده يمد له ورقة.

«اطلع على هذه الخطة البديلة».

أمسك ناصر بالورقة، كانت المفاجأة: الدولة المقترحة... المغرب.

سكت لثوان طويلة، كأن الخبر نزل عليه دفعة واحدة. ثم سأل:

«المغرب؟ هل يوجد بها مناطق متأثرة بالجفاف؟»

«زرتها قبل شهرين. جنوب المغرب يعاني من الجفاف. الزراعة البعلية مدمرة، وهناك نزوح زراعي واضح».

«ما المطلوب مني؟»

«تجميع معلومات عن معدلات الأمطار في الخمس سنوات الأخيرة، خاصة في الجنوب، وتحليل القرارات الاقتصادية للحكومة المغربية لمواجهة الأزمة».

رفع ناصر عينيه إلى الدكتور فرانسيس، وقال بهدوء:

«أشعر أني قادر على ذلك».

فرد عليه بابتسامة واسعة:

«إذن، لن يكون هذا طريقك نحو النجاح فقط... بل بداية حقيقية لباحث عالمي».

5- باريس

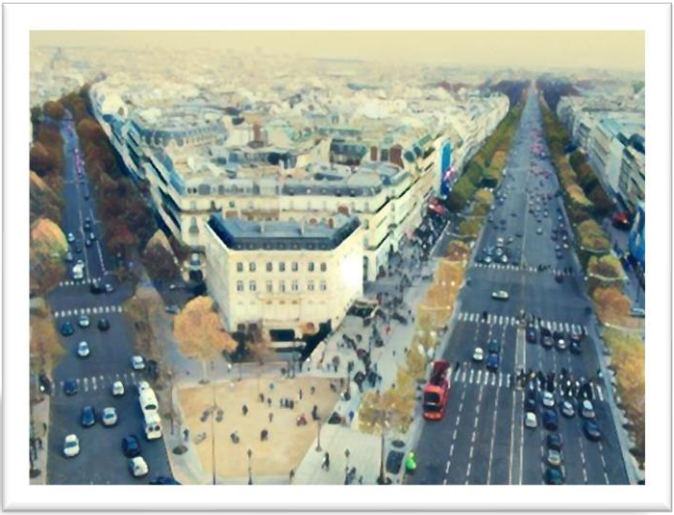

جمع ناصر ما استطاع من معلومات عن جنوب المغرب، لكنه ما إن بدأ بحزم أمتعته حتى تسلل الخوف إلى قلبه.

لم يسبق له أن زار بلدًا عربيًّا، وكان يحمل تصورات مشوشة، بعضها ساخر، وبعضها مزروع في لا وعيه من أحاديث والدته، التي كانت تحذره دائما من «بنات المغرب» و«سحرهن الذي لا يقاوم».

كان كل ما جمعه من معلومات بلغة السياح، شواطئ، فنادق، مطاعم، مآثر تاريخية... لكن ناصر لا يسافر ليلتقط صورا مع قصور مر منها الملوك، هو يسافر ليغوص في أعماق أزمة منسية (زمن الجفاف).

اتجه إلى مكتب الدكتور فرنسيس، لعله يجد في تجربته الطويلة، خريطة طريق أو طمأنينة.

استقبله بابتسامته المعتادة، وقال له:

«اطرح كل ما في بالك يا ناصر، لا تتردد».

جلس ناصر أمامه، مرتبكًا، كأن الكلمات تتسابق ثم تتعثر عند طرف لسانه:

«المعذرة، لقد خضت تجارب بحثية كثيرة... أرجوك، أرشدني للإجراءات الأولية. أشعر أني غريب عن كل شيء».

ابتسم الدكتور فرنسيس، ثم رد بنبرة هادئة، أقرب إلى التوجيه الفلسفي منها إلى الإجابة المباشرة:

«لكل بِلد ثقافته الخاصِة. لا تقارن ثقافتك بهم. حيّد مشاعرك. لا تصدر أحكاما مطلقة بناءِ على معطيات جزئيةَ. والأهم... لا تجامل على حساب الحقيقة».

ثم أضاف، بنظرة جادة:

«استعمل كل الأدوات المتاحة، حتى لو تعارضت مع قيمك».

«ماذا تعني بتعارض القيم؟»

«أنت تتعامل مع أجهزة حكومية بيروقراطية. إذا كان بإمكانك الحصول على ورقة ضرورية بطريقة سريعة، لا تتردد... الزمن عدو الباحث».

شعر ناصر بالريبة من هذا الكلام الرمزي، لكنه فهم السياق. كان الدكتور فرنسيس يطلب منه أن يكون براغماتيًّا، لا مثاليًّا.

«ما المقصود بفريق العمل؟»

«عندما تصل، لا تبدأ بالعمل مباشرة. خصص الأسبوع الأول للتجوال... تعرّف على الأسواق، الشوارع، المزارع. صاحب سائقي الأجرة، فهم مستودع أسرار المدن. السائق الذي ترتاح لهَ، تعاقد معه باليومية».

«وماذا عن السكرتيرة؟»

«ابحث عنها من بنات المنطقة نفسها. يشترط أن تكون جامعية، تتحدث العربية والفرنسية بطلاقة، وتجيد استخدام الحاسوب. ستكون ذراعك اليمنى».

وقبل أن يغادر ناصر، سأله الدكتور فرنسيس بابتسامة:

«هل تعرف اسم المنطقة التي ستذهب إليها؟»

«مع زحمة الأسئلة نسيت».

«المنطقة اسمها **تارودانت**. جميلة، هادئة، متعبة للباحثين. لدي صديق فرنسي عائش هناك، متخصص في تصميم الحدائق، يملك مزرعة كبيرة، تستضيف رؤساء دول. سكنه الخاص مفتوح لك إن احتجت، وهذه ورقة فيها عنوانه».

توقف الدكتور فرنسيس ليرتشف من فنجان قهوته، ثم تابع:

«ستسافر إلى أكادير أولًا، ومن هناك تستأجر سيارة أجرة إلى تارودانت. الطريق ساعة وربع».

«سأحجز على أقرب طائرة».

خرج ناصر من المكتب، يسير بخطًى ثابتة، لكن قلبه لم يكن بثبات قدميه. في الردهة الكبيرة للكلية، لمحته دانيل. أوقفته، وسألته عن وجهته. روى لها كل التفاصيل، فأنصتت باهتمام، ثم قالت بهمس أقرب للسر:

«عندما تصل للمطار في المغرب... لا تقل أنك باحث».

«لماذا؟»

«ستفتح على نفسك أبوابا لا يمكن إغلاقها. ستطالب بتصاريح، وتدقيق، وربما منع».

«وماذا أقول؟»

«قل إنك سائح، هذا أبسط حل».

شكرها ناصر، وكان على وشك الرحيل، عندما رأى عينيها تلمعان بدموع خفيفة. أرادت أن تعانقه، أن تودعه بعاطفة صادقة، لكنه يعرف نفسه، لا يحب هذا النوع من الوداع. اكتفت بابتسامة حزينة.

غادر ناصر، وفي صدره خليط من الترقب والخوف والفضول، وأصوات متداخلة: صوت أمه تحذره، صوت دانيل تنصحه، وصوت الدكتور فرنسيس يعلمه أن «كل شيء قابل للتجاوز... إذا كنت تعرف الثمن».

6- أكادير

هبطت الطائرة التي تقلُّ ناصرا في مطار أكادير المسيرة ليلاً. كان الليل قد تمدد فوق الأطلسي، والهواء المحمَّل برطوبة البحر يتسلل إلى الرئة بسهولة تامة، كأنه يطهِّر ما علق بها من توتر الرحلة وتعب المدن.

سار ناصر بخطًى وئيدة في المطار البسيط، حتى وصل إلى بوابة الجوازات. ابتسم له الموظف، ابتسامة ذات مغزى، فيها شيء من الترحيب وشيء من الترقب. رد ناصر بأدب، محاولاً كسر الجليد. لكن فجأة، اختفى الوجه الودود، ووضع جواز السفر جانبا، وبدأت الأسئلة.

«فين الحجز ديال الفندق؟»

فتح ناصر هاتفه، وأراه الحجز من تطبيق السفر. تفحص الموظف الشاشة بتأنّ، كأنه يقرأ نوايا المسافر أكثر من تفاصيل الحجز، ثم تنهد، وختم الجواز في النهاية، بعد أن يئس من ناصر ومن محاولات الاستدراج المعتادة.

خرج ناصر بانطباع أوليٍ سيئ. قال في نفسه:

«إذا كان هذا الاستقبال، فكيف سيكون بقية الطريق؟»

مر من أمام موظف الجمارك، سحب حقيبته بعزم، واتجه نحو البوابة الخارجية. كان عدد سيارات الأجرة قليلاً. فاوض أول سائق وجده، واتفق معه على التوجه إلى تارودانت، عبر الطريق المختصر.

غادرا أكادير، والطريق يمر بين قرى نائمة، لا أثر لحركة، سوى أضواء خافتة في بعض النوافذ البعيدة.

جلس ناصر صامتاً، يراقب من نافذة السيارة العتمة تتداخل مع الطبيعة.

كانت كل دقيقة تقطع من خوفه جزءا، وتزيد في داخله فضولاً يشبه المغامرة.

بعد ساعة وربع، ظهرت أسوار تارودانت كطيف قديم يتلو سورة التاريخ. دخلوا من البوابة العتيقة، المدينة ما زالت مغمضة العينين، والشوارع خالية إلا من مصابيح باهتة، تحرس الأرصفة بصمت.

وصلوا إلى ساحة العلويين، وتوقفت السيارة عند باب رياض صغير، حيث نزل ناصر وسحب حقيبته.

ضغط الجرس، فخرجت امرأة مسنّة، تقاوم النعاس بابتسامة ترحيب حقيقية.

أنهت الإجراءات بسلاسة، وناولته مفتاح الغرفة رقم (1) في الدور الأرضي.

دخل ناصر الغرفة، وشعر أنه دخل التاريخ.

الزخارف، الأثاث، الألوان، وحتى رائحة الأخشاب المعتقة بالنعناع الجاف، كلها تحكي سيرة بيت مغربي تراثي، لا يشبه الفنادق، بل يشبه الذاكرة.

ألقى بجسده على السرير، وغاب في نوم عميق.

في الصباح التالي، جلس ناصر في فناء الرياض، يتناول فطوره المغربي الأول: خبز الشعير، زيت الزيتون، الشاي بالنعناع... كان كل شيء جديدًا، وفي ذات الوقت، مألوفًا بطريقة غامضة.

ارتدى «القفطان» المغربي التي اشتراه بالأمس، وخرج في جولة استكشافية.

لم يلفت الأنظار، كان يبدو كأحد أبناء المدينة.

تجول في الأسواق الشعبية، اكتشف رائحة الكمون في الهواء، وصوت النحاس يطرق في الزوايا، والنساء يساومن أصحاب المحال التجارية في صمت لا يخلو من حدَّة.

بقي ناصر في المدينة القديمة ثلاثة أيام.

كان يريد أن يشعر بها لا أن يراها فقط. وبعد أن اطمأن، طلب من إدارة الرياض مساعدته في إيجاد سائق من أهل البلد.

جاءه عبد اللطيف. رجل خمسيني، ذو لحية خفيفة، ولهجته مزيج بين العربية والأمازيغية، لكنه كان دمثا، ذكي النظرات، خفيف الظل.

أحس ناصر بالارتياح له، فاتفق معه على جولات يومية لزيارة المزارع المتضررة من الجفاف. كانا ينطلقان كل صباح إلى أحد الاتجاهات، ويتوقفان عند كل قرية أو مزرعة، يجمع فيها ناصر بياناته، قبل الجفاف، وبعده، الدخل، حجم المحصول، عدد العمال، تغير الأسعار.

في كل يوم، كان ناصر يقابل عشرة مزارعين، يجري مقارنات اقتصادية، ويدون أرقاما وأسماء، وفي المساء، يعيد ترتيب البيانات في دفاتره.

وبعد أسبوعين، تذكّر كلام الدكتور فرنسيس:

«أنت تحتاج إلى سكرتيرة».

سأل عبد اللطيف عن الأمر، فوعده أن يبحث.

في اليوم التالي، عاد له بابتسامة:

«أختي... تنطبق عليها المواصفات التي ذكرت، جامعية، ذكية، وتكتب بسرعة البرق. حددت لكما لقاء غدا، هنا، في المقهى المطل على ساحة العلويين».

ناصر لم يعلق. أومأ برأسه فقط. لكنه شعر، ولأول مرة، أن رحلته بدأت تكتمل ملامحها...

وبأن **تارودانت** ليست مجرد وجهة مؤقتة، بل ستتحول إلى نقطة مفصلية في حياته.

7- توردانت

في صباح اليوم التالي، حضرت عائشة إلى المقهى برفقة أخيها عبد اللطيف، قبل الموعد المحدد.

كانت ترتدي لباسا بسيطًا محتشما، وتحمل في نظراتها مزيجا من الحياء والجدية.

جلست في ركن جانبي تنتظر، بينما عيون بعض الجالسين والمارة لا تنفك تلاحقها، فالمشهد بدا غير مألوف؛ فتاة شابة وحيدة في مقهى شعبي.

لم يحتمل عبد اللطيف نظرات الفضول تلك، غادر برفقه أخته بسرعة، واتجه نحو الرياض الذي يقيم فيه ناصر.

في ردهة الاستقبال الصغيرة، التقيا به تفهم ناصر الأمر فورا، ورحب بهما بلباقة، واعتذر دون أن يوجه اللوم لأحد..

بدأت المقابلة. أسئلة روتينية، سريعة، مباشرة. وعائشة كانت تجيب باقتضاب، على قدر السؤال، دون زيادة ولا مواربة.

بدت هادئة، واثقة، لا تحاول إثبات شيء. اتفقوا أن تبدأ العمل معه على سبيل التجربة لمدة ثلاثة أيام. وعندما سألها ناصر عن الأجرة التي تناسبها، ردت بهدوء:

«الأجرة أنت تحددها، لا أنا».

كان في إجاباتها نوع من الثقة العفْوية، التي لا تعني التردد، بل الاحترام.

انطلقوا مباشرة للعمل. زارت معهم المزارع، دون أن تشتكي من طول الطريق أو شدة الحر. كانت تتواصل مع النساء الريفيات بلغة دارجة سلسة، تترجم لناصر ما لا يفهمه من العبارات المحلية، وتستوفي منهم المعلومات الضرورية بلطف وحزم.

ثم تعود لتجلس إلى جانبه، وتدون ما يريد على الحاسوب، وتنظم البيانات في جداول إكسل بدقة الباحثة المجتهدة.

بدأ العمل يكتسب طابع الفريق الحقيقي. عبد اللطيف يقود السيارة ويقترح الوجهات، عائشة تترجم وتدون، وناصر يراقب ويقارن ويحلل.

تمكّن ناصر، بعد أسبوع، من إرسال تقريره الأول للدكتور فرنسيس، الذي رد عليه برسالة دعم وتحفيز، وحثه على توسيع مصادره، ومتابعة تطورات السوق المحلي.

بدأ ناصر يزور السوق الأسبوعي، حيث كانت آثار الجفاف واضحة على أسعار المنتجات الفلاحية.

التضخم ينهش في جيوب الباعة والمشترين، والخضار صارت نادرة ومكلفة.

كان ناصر يصرف أسبوعيًّا مكافأة ألف درهم لعبد اللطيف، وأخرى لعائشة، ولم يسمع منهما سوى كلمات الشكر والامتنان.

وذات مساء، قال له عبد اللطيف، بصوته الهادئ:

«إذا بغيت تغير جو، وتخف شوية من التعب... مرحبا بك تزور قريتنا. ما تبعدش كثير، بس نص ساعة من هنا».

وافق ناصر. كان بحاجة للانفصال عن ضغط البحث، ولو ليوم واحد.

في اليوم التالي، تحركت السيارة باتجاه قرية أولاد برحيل، ثم انعطفت صوب جبال الأطلس الكبير.

خلال الطريق، كان عبد اللطيف يحكي عن تاريخ المنطقة، وعن تقاليد القبائل، ونكات المزارعين، وكان ناصر يبتسم، يهز رأسه، رغم أن كثيرا من الكلمات الدراجة المغربية كانت تفوته.

وصلوا أخيرا إلى قرية (تفنكوت)، بين الجبال، تحيط بها مزارع صغيرة، تبدو كرقعة خضراء معلقة على كتف الجبل.

عند مدخل البيت، فوجئ ناصر بالاستقبال. أطفال يغنون، نساء يلوحن من بعيد، رجال يصافحونه بحرارة. كان مشهدًا يليق بزائر من زمن آخر.

همس ناصر لعبد اللطيف:

«ليش هالاستقبال الكبير؟»

ابتسم عبد اللطيف وقال:

«إذا عرف السبب، بطل العجب».

«قول لي».

«أنت أول رجل من بلاد الحرمين يزور قريتنا».

دمعت عينا ناصر. شعر أنه يحمل اسم بلاده، لا اسمه شخصا فقط. تملكه شعور بالمسؤولية، وقال وهو يمسح دمعة تسللت من عينه اليمنى:

«سأخصص فصلاً كاملاً من بحثي لقريتكم، بإذن الله».

جهزت عائشة طاولة غداء عامرة بالأطباق المغربية. طاجين، كسكس، خبيز شعبي، سلطات باردة.

كان عبد اللطيف يشرح له كل طبق، ويصر على أن يتذوقه.

أكل ناصر حتى شبع، ولم يجد متسعا للمزيد. ثم خرج في جولة على قدميه، يتنقل بين المزارع البسيطة، والمدرسة الصغيرة، والمقبرة القديمة.

وكان عبد اللطيف يروي له، بفخر، بطولات رجال القرية أيام الاستعمار، كيف خبأوا المجاهدين، وكيف طردوا جند الاحتلال بالحيلة والعصا.

عند عودتهم، وجدا عائشة قد أعدّت إبريق شاي مغربي بالطريقة التقليدية، يسكب من علوٍ في كؤوس صغيرة.

جلسوا في الفناء، والشمس تميل نحو المغيب، والهواء الجبلي يلفح وجوههم برائحة الزعتر البري.

قبل المغرب، ودّعهم ناصر، وعاد إلى تارودانت، حاملاً معه دفء الضيافة، وحنينا مفاجئا لقريته التي لم يعرفها بعد.

8- توردانت

في صباح اليوم التالي، أيقظه رنين هاتفه المتواصل.

كان اسم أمه يلمع على شاشة جواله. ارتجف قلبه. لم تكن تتصل في هذا الوقت، إلا إذا حلّت كارثة.

ردّ قبل أن ينهض من سريره، رد بصوت ناعس:

«ألو يمّه..».

لكن صوتها جاءه كصفعة:

«أنا أعرفك زين، بارد المشاعر، ما تهتم بأمك!»

تجمد في مكانه، كأنها اتهمته بجريمة لم يرتكبها.

حاول أن يستوعب كلامها الصاعق، قبل أن يرد.

تابعت أمه كلامها بصوت تغلّفه نبرة حزن وغضب:

«أنا ناوية أخلع أبوك!»

ارتفع حاجباه بدهشة، ثم رد بسخرية حاول أن يُخفي بها ارتباكه:

«وأصير ولد المخلوع؟»

زاد غضبها:

«عارفة إنك غير مفيد، لا لي ولا لأبوك».

ضحك بتكلف، ورد:

«طيب، حسبت الأرباح والخسائر من خلع الوالد؟»

ردت منفعلة، بصوت عال:

«ما يهمك إلا الأرقام... معدوم المشاعر».

رد بهدوء:

«إذا خلعتيه، راح تخسرين تفويض راتبه التقاعدي، لأنه يلغى تلقائيًّا».

«تجب عليه النفقة».

«لأطفاله فقط. الزوجة المخلوعة ما لها شيء، لأنها خرجت من ذمته».

صمت ثقيل نزل بينهما. ثم قال بنبرة أخف:

«إلا إذا لقيت عريس يعوّضك».

ردّت بضحكة غاضبة:

«ومن هو المجنون اللي بتزوج وحده خمسينية؟»

قال ممازحا، وقد نجح في أن يكسر حدّة الموقف:

«لو ما كنت أمي، كان خطبتك. ما شاء الله عليك، كل شيء فيك كامل».

ضحكت أخيرا. ضحكة قصيرة لكن صادقة، كأنها رشفة ماء بعد عطش. كانت تلك الضحكة كل ما تحتاجه؛ لا أحد يزرع فيها الأمل، ولا من يملأ فراغ البيت بعد زواج أخته، سواه.

قال لها وهو يهم بالنهوض:

«أنا في جنوب المغرب، موفد من الجامعة لدراسة أثر الجفاف. وأبشرك... البحث يتقدم. بعد شهر، أزوركم بإذن الله».

ارتبكت، ثم ردّت بمحبة تخفيها تحت غلاف الجفاء:

«الله يسهل دربك... وأنا أعد الأيام حتى ترجع».

أغلق الجوال، لكن صدى كلماتها بقي يزن في أذنه.

كان ينوي إخبارها أنه بدأ يفكر بجدية في الزواج، لكن خاف أن تفتح عليه أبواب العرائس والعروض والوساطات. أجل الخبر، لوقت آخر.

في ذلك اليوم، لم يتصل بعبد اللطيف. آثر البقاء وحيدًا، يكمل قراءة التقارير والبيانات عن سياسات الحكومة المغربية لمواجهة الجفاف.

كان كل ما توصل إليه يشير إلى أن أساليب الزراعة التقليدية، القائمة على الاجتهاد والموروث، هي من فاقمت الأزمة. من دون تغييرات جذرية في السياسات الزراعية، لن يتغير الحال.

بدأ يشعر بالجوع. خرج من الرياض متجها نحو السوق الشعبي بمحاذاة شارع محمد الخامس، الشارع الحيوي في قلب تارودانت.

لفت نظره عجوز تجلس إلى جانب فرن حجري، تخبز الخبز على نار الحطب. اقترب، التقط لها صورة بجواله (دون أن يظهر وجهها)، ابتسم وهو يشتري منها رغيفين، وأعطاها ثمنًا مضاعفًا ثلاث مرات.

ابتسمت له تلك الابتسامة التي تشبه البركة، ومضى في طريقه. مشى في الشارع الضيق، حيث المحالّ الصغيرة تتزاحم بجوار بعضها، تذكّر أحياء مدينته الرياض القديمة، والدفء الذي يسكن الزوايا المنسية.

عند البوابة الثانية من سور المدينة، لمح عربة حنطور. تقدم وركبها، جلس على الكرسي كما لو كان جنرالًا رومانيًّا في أفلام هوليود.

العربة تهتز، والناس يفسحون الطريق للحصان.

ضحك في سره من الفكرة، لكن استمتع بتجربة لم يعشها من قبل.

وصل إلى ساحة العلويين، نزل من العربة بدأت الحركة تخف مع حلول المساء، وبعد صلاة العشاء، خفتت المدينة أكثر.. المحالّ أغلقت أبوابها، وبقيت المقاهي والمطاعم خارج السور فقط تنبض بالحياة.

عاد إلى سكنه بالرياض، وفي قلبه ضجيج خافت، أمه تتوق له، ووطن يتسلل إليه من زوايا الذاكرة، وبحث يتعاظم، ومسؤولية تزداد.

9-تارودانت

مضت ثلاثة أشهر منذ وصول ناصر إلى المغرب.

كل الصور الذهنية التي كان يحملها عن هذا البلد تلاشت. نزعة التدين هنا أقرب إلى الفطرة؛ هادئة، غير متكلّفة. الناس يعيشون ببساطة نقية، كأنهم يرفضون التعقيد.

كانت المدن الكبيرة قد رسمت في ذهنه صورة مغلوطة؛ تارودانت، على النقيض، مدينة ترتدي جلباب القرية، كلما اقتربت منها أكثر، شعرت بأنها تحتضنك.

حين يرتدي ملابسهم، ويمشي في أزقّتهم، يشعر أنه واحد منهم؛ لا نظرات استغراب، ولا استغلال، رغم وجود بعض الأجانب، إلا أن أهل المدينة تعاملوا مع الجميع بنبل قديم.

في صباح هادئ، جلس ناصر في صالة الاستقبال بالرياض. العاملون يبادلونه التحية والاحترام كما اعتاد.

فتح بريده الإلكتروني، ولفت انتباهه اسم الدكتور فرنسيس. برسالة قصيرة، لكنها حادة:

«نحتاج إلى صور من القرارات الحكومية المتعلقة بالجفاف، بأسرع وقت».

أرسل في طلب عبد اللطيف وعائشة. وصلا في الموعد، كما يفعلون دائما. عرض عليهم المهمة.

قال عبد اللطيف، وهو ينظر نحو أخته:

«أفضل من يقوم بالمهمة هي عائشة».

رفع ناصر حاجبه مستغربا:

«لماذا؟»

ابتسم عبد اللطيف:

«لأنها أنثى، والأنثى تسهل الأمور هنا».

«وإن ذهبت أنا؟»

ضحك عبد اللطيف بلطف:

«سيطلبون منك موافقات، من جهات أمنية وسيادية. ستعقّدها بدل أن تنجزها».

«أليست هناك جهات متعددة يجب زيارتها؟»

«لا، كل ما تحتاجه ستجده في الجمعية الفلاحية».

تدخلت عائشة بهدوء:

«أعرف زميلة تعمل هناك».

التفت ناصر إليها وقال مبتسما:

«دائماً أنت تبادرين في تجاوز العقبات».

احمر وجه عائشة، وتهربت بنظرها، كأن كلامه باغتها.

ذهبوا جميعا سيرا إلى الجمعية، التي لا تبعد كثيرا.

دخلت عائشة وحدها، وبقي ناصر وعبد اللطيف في المقهى المقابل.

ناصر شَغَل نفسه بمراقبة الباعة المتجولين، يحاول فك رموز لهجتهم. يعرف كلمة، وتغيب عنه عشر كلمات.

قطع عبد اللطيف الصمت:

«هل أنت متزوج؟»

ابتسم ناصر، شعر أن السؤال بداية لكسر حواجز الرسمية بينهم:

«لا... إلا إذا زوجتني عائشة».

ضحك عبد اللطيف من خفة دمه:

«مثلك من خيرة من عرفت».

قاطعه ناصر مداعبا:

«لكن لا يبدو أنك متحمس للفكرة».

قال عبد اللطيف بهدوء حاسم:

«عائشة مكتوب كتابها على ابن عمها، يعمل في مرسيليا... والزواج سيكون الصيف القادم».

كأن ريحا باردة مرت في صدر ناصر.

تراجع بابتسامة باهتة:

«هل تزوجون بناتكم لأجانب؟»

«في القرى لا، لأننا نعرف بعضنا البعض منذ الصغر. البنت يُحدد عريسها من صغرها».

«وفي المدن؟»

«الوضع مختلف. الانفتاح هناك أكبر... والشروط أقل».

«أنتم متمسكون بالعادات بقوة».

«لأنها تحفظنا».

مرت ثلاث ساعات، منذ دخلت عائشة المبنى.

بدأ القلق يتسرب إلى ناصر. هم بالذهاب إليها، لكن عبد اللطيف أوقفه:

«دعها... ستعود حين تنتهي».

عاد ناصر إلى سكنه بالرياض، وفي المساء وصلت عائشة وعبد اللطيف، يحملان رزمة ضخمة من الأوراق.

تصفح ناصر المستندات بسرعة، ثم طلب نسخا منها، وطلب منهم إعادة الملف للجمعية.

سألها ناصر، وهو منبهر:

«كيف استطعت إخراج الملف؟»

ردت عائشة بثقة خفيفة:

«كنت صريحة معهم... وحين عرفوا أنك باحث من جامعة السوربون، اتصلوا بمسؤول كبير. لم يتردد في الموافقة».

«لماذا استغرق الأمر كل هذا الوقت؟»

«كنت أجس نبضهم... وعندما شعرت أنهم مستعدون، عرضت طلبي».

نظر إليها بتقدير:

«أشكرك على مجهودك... كثيرا».

ابتسمت، ثم خفضت عينيها.

وبقي في قلب ناصر سؤال لم يسأله:

«هل كانت هذه آخر مرة يراها؟»

10- تارودانت

طال ليل ناصر... تقلب في فراشه، تتناوشه الأفكار الشيطانية التي لا تزوره إلا عندما يستعد للنوم.

طيف عائشة لا يفارقه، كأنها الآن تجلس إلى جواره في هذا السكون العميق، في هذا الليل الذي بات يشبهها، بسيطًا، غامضا، صامتا... لكنّه حي.

كل تلك الأيام التي قضتها معه، لم يلتفت لها... كانت تمر مثل ظل خفيف، لا يراه إلا إذا أمعن النظر.

فتاة محجبة، نحيلة، ذات بشرة سمراء لا تضع مساحيق، كأنها تتعمد أن تظهر على طبيعتها.

لم يكن يرى منها شيئا... سوى ما ظهر. نظرته لها كانت ممزوجة بإعجاب ناعم، مغطًى بغلاف من الاحترام.

فهو القادم من باريس، منبع الجمال المصقول، أين هي من ذلك العالم المتخم بالألوان والعطور؟

استعرض صورها الذهنية، محاولًا أن يضع إصبعه على السبب. حضورها كان واضحا، رغم صمتها لكن... ثمة جمال لا يرى بالعين، يشعر به القلب وحده، لا يوصف، لكنه يعاش. وعائشة من هذا الطراز. ندية في الحديث، لا تذوب في المجاملة، إذا ناقشتها، تبني رأيا لا يتكئ على الخضوع، بل على الحجة. عندما تغيب، يخفت شيء في المكان... كأن الهواء فقد نكهته.

أدرك ناصر فجأة، أن عائشة صعبت عليه مهمة البحث عن عروس له. هنالك صفات لا تَدوَّن في دفاتر، لا تَفهرس، لا تَطلب... بل تُحس.

في الصباح التالي، مشى بخطًى مترددة نحو محلّات الذهب. اشترى عقدًا بسيطًا، ناعما كهمس، لا يلفت الانتباه.

عـاد إلى غرفتـه بالـرياض، جلـس يتأملـه، كأنّـه يـرى فيـه عائشـة... تخيـل نفسـه العـريس، وهـي إلى جـواره، ترتـدي العقـد، وتبتسـم... لحظـة شاردة، سرح بها بعيدا... حتى أفاق على صوت رنين الجوال.

كـان صـوت عبـد اللطيـف. يشـعره بأنـه سيحضـر مـع عائشـة بعـد قليـل. نهـض ناصـر فجـأة، وأدرك أنـه لم يُحضـر هديـة لعبـد اللطيـف. فتـش سـريعا، ولم يجـد أعـز مـن سـاعته الفـاخرة، نزعهـا مـن يـده، ووضـعها في صندوق صغير.

حين حضرا، استقبلهما بابتسامة متعبة، وقلب مثقل، تكلم معهم بصوت متهدج:

«من أجمل لحظات حياتي، تلك التي عشتها معكم.

كانـت مهمـتي في البدايـة ثقيلـة، متعبـة، لكـن بتعـاونكم تخففـت الصعاب، ورفعت تقريري الأخير للجامعة... حصلت على تقييم عـال جدًّا. أنتم أهلي هنا، وإن بدر مني شيء أساء لكم، فاعذروني».

انهارت دمعة خفيفة على خد عائشة. بينما عبد اللطيف تظاهر بالتماسك، لكنه لم يخف احمرار عينيه.

أكمل ناصر كلامه، بصوت يخالطه الأسى:

«سأغادر بعد يومين، يوم السادس من سبتمبر، وحرصت أن أجتمع بكم، لأودعكم، وأقدم لكم هذه الهدايا التذكارية».

وضع العلبة الصغيرة أمام عائشة، والساعة لعبد اللطيف. لكن لم يمد أحدهما يده.

ساد صمت ثقيل، قطعه عبد اللطيف:

«لن نقبل الهدايا... إلا إذا وفيت بوعدك».

«أي وعد؟»

«أن تكتب عن قريتنا في دراستك».

ارتبك ناصر، التفت إلى الأوراق المبعثرة في ذهنه:

«ضاق علي الوقت، المعذرة...»

نظر إليه عبد اللطيف بثبات:

«أهل القرية بانتظارك. هيأت لك سكنا مريحا...

وإذا كنت تعتبرنا أصدقاءك، فلتؤجل عودتك أياما فقط».

شعر ناصر كأن الباب يفتح له من جديد، ليس بابا للبحث فقط، بل باب للحياة. وافق، بشرط أن يقبلا الهدايا.

وافق عبد اللطيف وعائشة على استلام هديته، غادرا تغمرهما نشوة النصر، بينما بادر ناصر وغير حجز طائرته إلى السبت، التاسع من سبتمبر.

بدأ يجمع متعلقاته بسكنه الرياض الذي احتضنه ثلاثة أشهر. طلب منهم الاحتفاظ بحقيبته الكبيرة، وخرج يحمل حقيبة صغيرة... وفي داخله... عالم كبير تغير.

11- الخميس

2023/9/7م

قرية تفنكوت

انطلقت سيارة عبد اللطيف تشق طريقها صعودا نحو جبال الأطلس الكبير، حيث تتكور القرى بين السفوح كأنها تختبئ من صخب العالم.

في المنعطف الأخير المؤدي إلى قرية «تفنكوت»، بدأ بعض أهلها يلوحون بأيديهم، يستقبلون ضيفهم كما لو كان أحد أبنائهم العائد من سفر طويل.

أمام بيت عبد اللطيف توقفت السيارة. عائشة وحدها كانت تنتظره عند باب بيتهم. ابتسمت له في حياء، ومدت يدها تصافح يده، وكانت تلك أول مرة يلمس فيها يدها... يدٌ نحيلة دافئة، كأنها تحمل ثقل الأيام، وخفة الرضا في آن واحد.

اقتاداه إلى غرفته الخاصة التي أُعدّت له، وما إن ولجها حتى انبهر. كانت تحفة على الطراز المغربي العتيق، نوافذها واسعة، تسمح بدخول الضوء والهواء، وجدرانها الطينية تحتفظ ببرودتها رغم حرارة النهار. خلف الغرفة، دورة مياه بسيطة... كل شيء أنيق ببساطته.

سأل ناصر، متعجبا:

«كيف بنيتم هذه الغرفة بهذه السرعة؟»

ضحك عبد اللطيف في فخر:

«أنا من بناها، بمساعدة بعض الأصدقاء».

«كنت معي يوميًّا، متى وجدت الوقت؟»

«من بعد صلاة الفجر، أعمل فيها حتى وقت طلبي لك».

«أنت فعلًا متعدد المواهب».

«نحن أبناء القرى، نعرف عن كل شيء حولنا. أنا مزارع، وسائق أجرة، وأجيد صيانة المحركات».

«ليتني مثلك».

«كلٌّ منا رزقه الله بما يناسبه، المهم أن نعرف كيف نستفيد مما نملك».

في الخارج، كانت عائشة تجهز لهم فطورا شعبيًّا لذيذًا، ولم تجلس معهم. شغلت نفسها بإعداد قائمة بالمزارع التي سيزورونها بعد الفطور.

اطّلع ناصر على القائمة، وجدها كافية لجولة مدتها أربع ساعات. أثناء التجول، كان يجمع البيانات من الفلاحين. بعضهم ظنه مبعوثًا من الحكومة، فشكا له الجفاف والقلق من المواسم المقبلة، وبعضهم نظر له بريبة وحذر.

في طريق العودة، مر بالجبل القريب من القرية، فوجد أطفالًا يتسلقون الأحجار ويضحكون. تحداهم، فصعدوا كالعصافير... حتى غابوا عن ناظريه في القمة.

حاول اللحاق بهم، لكن الصخور كانت غير ثابتة، وانتابه خوف أن تنزلق قدمه. فتراجع، وجلس عند السفح، يراقب الأفق... متأملًا في نفسه أكثر مما يراقبهم.

مع غروب الشمس، عادت القرية إلى إيقاعها الهادئ.

أعدّت عائشة طواجن الخضار والدجاج، مع خبز بلدي حار.

أصر ناصر على أن يتناولوا الطعام معا، لكنها بالكاد جلست. تارة تسخن الخبز، وتارة تحضر اللبن، تحتمي بالحركة من خجلها. تركها ناصر على راحتها... لم يشأ أن يثقل عليها.

بعد صلاة المغرب، اجتمعوا حول شبة النار، يدفئون المساء بحكاياتهم.

سألهم ناصر:

«ما هي أمانيكم في الحياة؟»

أجاب عبد اللطيف ببساطة:

«أن أتزوج، وأكوِن أسرة».

«وما الذي يمنعك؟»

«عاهدت والدي قبل وفاته، ألا أتزوج حتى تتزوج عائشة».

«عائشة ستتزوج العام القادم، أليس كذلك؟»

«نعم، لكني لن أفكر في الزواج حتى تسبقني بذلك».

«ونعم الأخ... وأنت، عائشة، ما أمنيتك؟»

احمر وجهها، ونظرت إلى النار، تحتمي بها من عينيه، ثم همست:

«الستر... والزوج الصالح».

مرت لحظة صمت كأن الأمنيات نثرت في الهواء وعلّقت فوق رؤوسهم، تنتظر أن يتلقفها القدر. عندما أثقل النعاس جفنيه، غادر عبد اللطيف وعائشة المكان بهدوء.

بقي ناصر مستسلما لنسمات الهواء الباردة، يتأمل السماء المليئة بالنجوم وفي هدوء الليل، عادت عائشة تتفقّده.

رأته نائما، فغطّته بلحاف خفيف، ثم انسحبت بصمت... كأنها تخشى أن توقظ الحلم الذي يسكن قلبه.

12- الجمعة

2023/9/8م

قرية تفنكوت

استيقظ ناصر على رائحة الخبز الساخن، وصوت أقدام خفيفة تتحرك خارج غرفته. كان صباح اليوم الأخير، مختلفاً عن كل ما سبقه، مشبَّعا بشيء من الحنين قبل أن يبدأ الفراق.

على المائدة، كان الإفطار قد أُعد بعناية. جلست عائشة للحظات، تتأكد من أن كل شيء في مكانه، تسأله بلطف إن كان يحتاج شيئا.

نظر إليها كما لم يفعل من قبل، كأنه يحاول أن يشبع بصره من حضورٍ لا يدري متى يراه مرة أخرى كانت خطواتها وهي تغادر الغرفة، أكثر ما علق بعينيه في تلك اللحظة..

وصل عبد اللطيف في موعده، ليصطحبه إلى صلاة الجمعة في مسجد القرية الصغير. تبادل ناصر التحايا والابتسامات مع أهل القرية، الذين صاروا جزءا من ذاكرته القصيرة، العميقة.

عند باب المسجد، استقبلهم الإمام، شيخ وقور بعينين تشعان طيبة، رحَّب به، وعرض عليه أن يخطب الجمعة، باعتباره من بلاد الحرمين. ابتسم ناصر، واعتذر بلطف.

كانت الخطبة عن القضاء والقدر، عن التوكل والرضا، وانتهت بجملةٍ ظلّت ترنّ في قلبه أكثر من أذنه:

«**إننا لا نعلم متى نموت؟ وأين نموت؟**» كأنها كُتبت له، في يوم وداع، على أرضٍ لم يكن يحسب لها في حياته مكان.

بعد الصلاة، صافح المصلّين. لم يفهم كل كلماتهم، لكن ملامح الوجوه كانت كافية لنقل المحبة. عاد برفقة عبد اللطيف إلى البيت، وقد اعتذرا بلطف عن دعوات الغداء من أهل القرية.

في باحة المنزل، أعدّت عائشة قهوته المخصوصة، وقدّمتها له بابتسامة دافئة.

سألها وعيناه معلقة على عينيها:

«كيف عرفت أني بحاجة لهذه القهوة بالذات؟»

فأجابته بنبرة خفيفة:

«ثلاثة شهور نعمل معا... أعرف عنك أكثر مما تعرفه عن نفسك».

ابتسم بدهشة، فواصلت:

«أنت ترى نفسك كما يراك الناس... وأنا كنت أراك يوميًّا دون أن تنتبه».

«وهل يجب أن نرضي الناس، كي نترك صورة طيبة في أذهانهم؟»

«ليس كل الناس...» أجابت وهي تخفض عينيها.

«العلاقات، مثل كل شيء في الحياة، إذا أسرفنا فيها فقدت معناها».

ردت بنبرة امتنان صادقة:

«شكرا... أتعلم منك أكثر مما تظن».

في المساء، قرر ناصر أن يصعد جبل الأطلس الكبير مع عبد اللطيف، وصلا إلى أعلى نقطة يمكن بلوغها، هناك حيث تتكشف القرية كلوحة مصغّرة عن العالم.

أخرج هاتفه، التقط صورة بانورامية، وأرسلها إلى «دانيل» في باريس، مرفقة بموقعه.

جاء الرد بوجه (إيموجي) يبتسم... ابتسم بدوره، لكن شيئًا ما في أعماقه كان يعيد ترتيب أولوياته بصمت.

نزلوا من الجبل قبل الغروب، لتجدهم عائشة قد أعدت وجبة العشاء الأخير.

قدّمت له طبق «الحريرة»، فتذوقه ببطء، ثم قال بإعجاب صادق:

«ألذُّ حريرة جربتها في المغرب».

احمرت وجنتاها خجلًا، لكنها تجاوزت ذلك بسرعة، وبدأت تسرد فوائدها الغذائية... كأنها تحتمي بالكلمات من المعنى الذي لم يقل.

مر الوقت أسرع من أن يَمسك به. انسحب ناصر إلى غرفته ليجهز حقيبته الصغيرة، استعدادا للرحيل نحو أكادير، ثم الدار البيضاء.

وقفت عائشة عند الباب، تودعه. لكنه لم يشأ أن يكون وداعا عاديًّا، بادرها:

«وداعا، عائشة».

لكنها هزت رأسها وأجابت بإصرار:

«ليس بعد، سأعد لك فطورا تأخذه معك في الطريق».

ثم مضت، وكأنها ترفض الاعتراف بانتهاء الحكاية... أو تترك لها حبلًا طويلًا قد يسحب يوما ما.

13- الجمعة

2023/9/8م

قرية تفنكوت الساعة 11:11م

في تلك الليلة، جهز ناصر حقيبته الصغيرة، وضعها جانبا عند باب الغرفة. فتح النوافذ، فاندفعت نسائم الهواء الباردة تحمل رائحة التراب، وكأنها تودعه على طريقتها.

وضع قارورة ماء كبيرة بجانب سريره، ثم استلقى ببدن متعب وقلب مطمئن، وغطّ في نوم عميق كأنما احتضنه المكان.

لكن... فجأة، اهتزّت الأرض من تحته بعنفٍ مزلزل.

استفاق على صوت كالرعد، كأن القيامة قد قامت، قبل أوانها.

اهتز السقف، ثم هوى عليه الجدار، لم يشعر إلا بخشبة تضرب رأسه... ثم عم الصمت، وغرق في ظلامٍ لا قاع له.

كان ذلك زلزال **الحوز**، الأعنف في تاريخ المغرب المعاصر، بقوة 6.8 على مقياس ريختر.

لم تكن الهزة وحدها ما حصد الأرواح، بل الصخور العملاقة التي انزلقت من الجبال، داست البيوت، وقطعت الطرق، وعزلت مئات القرى عن العالم.

مع أول خيوط شمس يوم السبت، كانت قرية تفنكوت قد تحولت إلى ركام، جدرانها الطينية انهدّت كما تنهدّ الأحلام على حين غرةٍ.

لم يكنٍ هناك فرق بين البيوت والمقابر. كان الناجون يزيحون الركام بأيديهم، بحثا عن نبضٍ، أو أنينٍ... أو أثر حياة.

في مدينة الرياض، لم تعلم أم ناصر بما جرى، بينما القنوات الفضائية بثت صورا مروعة للكارثة، والأسماء لم تبدأ بالظهور بعد.

عند مغيب شمس السبت، استفاق ناصر من غيبوبته، شعر بطنينٍ حاد في أذنه، وصوت تنفسه يتردد بين الجدران المنهارة، نادى بصوت مبحوح:

«عبد اللطيف... عائشة...»

لكن لم يجبه أحد.

كان الجزء السفلي من جسده محاصرا بالركام، ويده اليمنى تؤلمه بشدة، مكسورة على الأغلب. تلمس بيده الأخرى، حتى وجد جواله مدفوناً في التراب، فتح عينيه بالكاد، وكتب رسالة قصيرة إلى «دانيل»:

.SOS

ثم انطفأ كل شيء من حوله... من جديد. في باريس، كانت دانيل تتابع الأخبار بقلق، وحين وصلتها الرسالة، لم تتردد.

وجه الدكتور فرنسيس نداء استغاثة، للسفارة السعودية. بباريس عبر منشور في منصة (إكس). انتشر الخبر في وسائل الإعلام الفرنسية، «الباحث السعودي ناصر مبعوث من جامعة السربون في عداد المفقودين في زلزال الحوز».

يوم الأحد، تحول اسمه إلى وسم. طلاب السوربون علقوا صورته في الساحة الكبرى، أحاطوها بالورود وبطاقات الأمل.

وفي السعودية، اجتاح الوسم: (#قلوبنا_معك_يا_ناصر) مواقع التواصل، واكتظّ بيت والدته بالنساء من الأهل والجيران، بينما هي، ملتزمة صمتا موجوعا، لا تقوى حتى على الدموع.

صدرت الأوامر الملكية السعودية بإرسال طائرة إخلاء طبي إلى أكادير، تحرك فريق سعودي بالتعاون مع متطوعين مغاربة للبحث عنه تحت الركام.

ويوم الإثنين، قبل الظهر، عثروا على الموقع. بهدوء، وبأيد خفيفة، بدأوا إزالة الركام ثم... ظهر جسد ناصر، مكسوا بالغبار، مطويًّا على نفسه. نبضه كان ضعيفا، لكنه ما زال على قيد الحياة. قدّموا له الإسعافات الأولية، ثم نُقل على الفور بطائرة هليكوبتر إلى أكادير.

وصل الخبر إلى والدة ناصر. أخيرا، وجدت في عينيها دمعة. لكن لم يخبرها أحد بالحالة الدقيقة لابنها، فكل ما كانت تعرفه... أنه لا يزال حيًّا.

في مطار أكادير، انتظر الفريق الطبي السعودي الطائرة. قرروا نقله فورا إلى الرياض، على أمل إنقاذه قبل فوات الأوان.

كانت هناك حاجة ماسة لصورة أشعة مقطعية للرأس، خشية وجود نزيف داخلي سبع ساعات طيران... والقلوب معلّقة بالدعاء.

عند الهبوط في مطار الملك خالد بالرياض، كانت أم ناصر تنتظر في صالة القدوم. تقدّمت خطوة، ثم تجمدت في مكانها، حين رأت جسد ابنها مسجًّى على السرير، تغطيه الأجهزة... وترافقه ظلال من صمت المستشفيات الثقيلة.

نُقل ناصر مباشرة إلى العناية المركزة في المستشفى التخصصي... وما زال كل شيء، منذ تلك اللحظة، معلقًا على رجاء الأمل بالله.

14- الرياض

مرت ثلاثة أسابيع منذ دخل ناصر المستشفى،

جسده تعافى شيئا فشيئا، الجبيرة أُزيلت من يده اليمنى، لكن الصمت ظل سجينا في فمه...

لا يتكلم، لا يضحك، لا يبكي، فقط... يحدّق.

أمه تجلس بقربه، تقرأ ملامحه، تبحث عن ابنها الذي تعرفه.

أحيانا، وهو نائم، يهمهم باسمي **عائشة وعبد اللطيف**، فيوخزها الظن...

«ربما كانت عائشة زوجته... وعبد اللطيف ابنه؟

هل فقدهم في الزلزال؟»

حملتها الحيرة إلى مكتب الطبيب النفسي.

«ابنك يعاني من **رهاب ما بعد الصدمة**...

الزلزال خلّف داخله فزعا خامدًا،

وحين يفقد الإنسان من يحب... تتضاعف الندبة».

قاطعته بقلق:

«وهل له علاج؟»

«الزمن هو الطبيب هنا. لكنه لا يشفى وحده، يحتاج إلى دعم منكم كعائلة، حوار، حِضن، حياة تُذكّره أنه ما زال حيًّا».

«وأدوية؟»

«سأصف له ما يُخفف الأعراض، يساعده على النوم، لكن العلاج الحقيقي... في الدفء البشري».

خرجت أم ناصر من المكتب، بعينين محملتين،

ثم التقطت صورةً لابنها، وبعثت بها لزوجها،

وأرفقت معها عبارة واحدة فقط:

«**ابنك بحاجة إليك**».

صدم أبو ناصر. لم يكن يعلم شيئا... لم يخبره أحد.

وفي المساء، كان في طائرة متجهة إلى الرياض،

ومن المطار... إلى المستشفى مباشرة.

في الممر، التقى بأم ناصر، استمع إلى تفاصيل الحادث، فانقطع نبضه فجأة، تهاوى جسده من هول الصدمة، لكن حين عرضوا عليه الاستراحة، رفض.

نهض باتجاه الغرفة، فتح الباب... ورأى ناصرا، على سرير أبيض، في نوم هادئ، لكن وجهه يروي حكايات لا تنام.

جلس الأب قربه. لم يتكلم، لم يرمش، لم يتحرك...

كانت عيناه تذرفان دون صوت.

وفي تلك اللحظة، شعرت أم ناصر بندم موجع:

«كم مرة نعتته بجمود الإحساس؟ وها هو... قلبه كلّه انسكب على السرير».

حين استيقظ ناصر، رأى وجه والده، فابتسم بدمعة.

عانقه الأب، بقوة صامتة شعر ناصر أن الأب... وطن لا يستبدل..

بدأ يحادثه، يتكلم عن طفولته، عن الدراسة، عن الأحلام... لكنه لم يذكر شيئا عن الزلزال. والأب، بحكمة القلب، لم يسأل.

بعد يومين، أبلغت إدارة المستشفى الأسرة:

«وفد فرنسي رسمي سيزور ناصرا، يرجى الاستعداد».

نَظّفت الغرفة، ورتبت الكراسي، نَثرت الورود في الزوايا، كأنها تحاول تضميد ما لا يرى. في الموعد، دخل السفير الفرنسي مع الدكتور فرنسيس، ترافقه دانيل. كان اللقاء صعبا ومحموما بالعواطف.

عانق ناصر الدكتور فرنسيس بحرارة، صافح دانيل، وعيناه مغرورقتان بدموع الامتنان. ثم دخل باقي الوفد، تحيةً، فابتسامات، ثم جلسوا جميعا.

وقف الدكتور فرنسيس وتحدث:

«لم آت باسمي فقط، بلٍ باسم جامعة السوربون، كل من فيها يكنُّ لَك احتراما عظيما. لقد أدهشنا بحثك الأخير،

بروحه، بعمقه، بتفانيه... ناصر أنت لست مجرد طالب، بل قيمة إنسانية».

ثم استطرد يكمل كلامه:

«قرر مجلس الجامعة منح ناصر العابر **ميدالية الجامعة الذهبية**، وها هو سعادة السفير الفرنسي بالرياض يتفضل بتقديمها».

تقدّم السفير، وعلّق الميدالية على عنق ناصر، وسلمه شهادة التقدير.

تكلم السفير، قائلاً:

«حامل هذه الميدالية يَمنح تأشيرة دخول مفتوحة لفرنسا، له... ولأسرته».

صفّق الحضور، وانهمرت فلاشات الكاميرات.

وفي هذه اللحظة، شعر ناصر بشيء يشبه الحياة يعود إليه... هدية من الضوء... بعد غبار الزلزال.

15- الرياض

استعاد ناصر بعضا من عافيته الجسدية، لكن الزلزال الذي نجا منه لم يغادره قط. لم يكن مجرد حدث عابر، بل لحظة تشققت فيها الأرض تحت قدميه كما تشققت روحه من الداخل. صار كل ارتجاج خفيف، كل صوت غير مألوف، يعيده إلى تلك اللحظة، الغبار، الصراخ، رائحة التراب الممزوج بالدم، وصوت نحيب في العتمة... يظنه لا يزال يسمعه.

منحته الجامعة إجازة مفتوحة ليستكمل دراسته لاحقًا، لكنّه سرعان ما أدرك أن الكتب لن تداوي ما لا يرى، وأن الذاكرة لا تغلق

بالقرار. لجأ إلى طبيب نفسي، ليس بحثا عن تفسير، بل عن طوق نجاة، عن وسيلة لإنقاذ البقية الباقية منه من الانهيار الكامل.

في أحد المساءات، خرج يتمشى مع والدته في الحديقة القريبة من منزلهم. منذ نجاته، لم يعد كما كان. صار الصمت رفيقه الأوفى، والنظر في المدى هوايته الوحيدة. كانت عيناه تراقبان الأطفال وهم يركضون ويلهون، وكأنهم ينتمون لعالم لم يعد فيه مكان له. قطعت والدته صمته بصوتٍ هادئ، مضمَّخ بالحذر، كأنها تمشي على زجاج:

«من هي عائشة؟ ومن هو عبد اللطيف؟»

كأن السؤال اخترق جدارا سميكًا من الجمود. توقف عن المشي، واستدار إليها، وعيناه تنبضان بخوف حقيقي:

«تعرفينهم؟ هل... هل سمعتِ عنهم شيئًا؟ أرجوكِ، قولي لي... هل هما بخير؟!»

ارتبكت. لم تكن تتوقّع أن يقابل سؤالها بكل هذا القلق. نظرت إليه كأنها ندمت على فتح الجرح قبل أن يلتئم، لكنها لم تجد مهربا من الحقيقة:

«كنت تذكر اسميهما باستمرار وأنت في غيبوبتك. تهذي بهما وكأنك تعيش معهما في حلم لا ينتهي»...

جلس ناصر على أقرب مقعد، كأن الهواء ثقيل على صدره. فكّ أزرار ثوبه العلوية، يحاول التنفس. أدركت والدته أنها وخزت موضع الألم، لكنها لم تتراجع. جلس بجانبها، أمسك يدها بلطف، ثم قال بصوت أشبه بالهمس:

«عبد اللطيف... كان السائق الذي رافقني في المغرب. رجل بسيط، قلبه أبيض، يعاملني كأنني أخوه لا ضيف. وعائشة... أخته. كانت سكرتيرتي. ذكية، مرتبة، هادئة مثل نسمة في عز القيظ. لكن لم يكن الأمر مجرد عمل، يا أمي. وجدت في تلك العائلة شيئًا يشبه الوطن. كنت أتناول معهم الغداء في بعض الأيام، نتبادل النكات، نحكي عن الأحلام. عائشة كانت تخبرني عن ابن عمها في فرنسا، وعن زفافها الذي سيقام الصيف المقبل...»

ثم خفض رأسه، كأنّه يخشى من رد فعل أمه، لكنه تابع:

«لا شيء بيني وبينها، أمي... فقط ود، وامتنان. لكن حين هز الزلزال أرضهم، شعرت كأن قلبي هو الذي سقط تحت الأنقاض».

نظرت إليه والدته طويلًا. قرأت في عينيه وجعا لم تقو على لمسه. بصوت مرتجف، سألته:

«هل تعرف اسم قريتهم؟»

«تفنكوت... في الجنوب المغربي».

قالت بحزم رقيق:

«سأبحث عنهم... سأتفقد قوائم الضحايا، فقط لا تيأس. إن كتب الله لهم الحياة، فستسمع عنهم قريبا».

وفي تلك الليلة، سهرت الأم أمام شاشة الحاسوب، تقرأ الأسماء بحذر وتوتر. كانت تتوقّف عند كل اسم، تتحقق، ثم تعود تبحث من جديد، حتى وجدت ما كانت تنتظره، لا وجود لاسم عائشة، ولا عبد اللطيف، ضمن قوائم الضحايا.

حين أخبرته، لم يبك ناصر، لكنه شعر وكأن الجدار الثقيل الذي كان جاثمًا على صدره بدأ يتشقق. لأول مرة منذ شهور، أخذ نفسا عميقًا ولم يضِق صدره.

في تلك الليلة، زاره طيف... عائشة. كانت تقف عند باب أبيض، ترتدي فستان زفافها، شعرها مسدول على كتفيها، تبتسم برقة، وتقول له:

«الحمد لله على سلامتك، ناصر».

كانا يجلسان معا على مقعد خشبي تحيط به الورود، لم يتبادلا الكثير من الكلمات، لكن السكينة كانت عارمة. كأن الحلم جاء ليؤكد

له أن الذكرى الجميلة لا تموت، وأن من نحبهم لا ينتزعون من قلوبنا حتى لو غابوا عن أعيننا.

استفاق على صوت والدته وهي تهمس بلطف:

«ناصر... حان وقت صلاة الفجر».

فتح عينيه، وابتسم لأول مرة منذ زمن... لا ليطمئنها، بل لأنه شعر بشيء يشبه السلام.

المؤلف: صالح محمد صالح الهلابي

- **الميلاد**: ولدت في ربيع عام 1966م، في بيت أسرتي الطيني بعيون الجواء، منطقة القصيم.
- **الإقامة**: أعيش في مدينة الرياض منذ عام 1968م.
- **التعليم**: تخرجت في جامعة الملك سعود عام 1990م.
- **الخبرة العملية**: لدي خبرة في الوظيفة العامة تمتد لأربعين عاما، شغلت خلالها منصب مدير لمدة خمس وعشرين سنة.
- **العمل الحالي**: أشغل حاليًّا منصب المدير التنفيذي لجمعية حماية الطيور.
- **النشاطات**: ناشط في المجال البيئي، متخصص في حماية الطيور.
- **الإصدارات**: صدر لي عدد من الكتب في مجالات متنوعة.

- **التواصل:**
  - **الجوال** (+966 555 488 890)
  - **البريد الإلكتروني:**
  - helabis@gmail.com
  - **www**.alhelabi.com

روابط مهمّة لكل كاتب، ستساعدك على تنمية مهاراتك الكتابية.

شروط النشر في دار بسمة للنشر الإلكتروني

اشترك في النشرة البريدية الآن

اسأل سؤالك هنا

دار بسمة للنشر الإلكتروني

دار مغربية، رقمية، تأسست في 2017

دار بسمة للنشر الإلكتروني من أهدافها مساعدة الشباب المغاربة والعرب على نشر إبداعاتهم، وإيصال أصواتهم وتغريداتهم إلى العالم كله، كما تطمح لاكتساح عالم النشر الإلكتروني في كل الأقطار العربية..

كما أننا –في محاولة منّا لتغذية شريان الثقافة– نسترشد بالضمير الحي من أجل نشر المحتوى الثمين، حاملين على كواهلنا رسالة التنوير الحقيقي، ومدركين كل الإدراك لقيمة القلم النبيلة، لذلك كنا حريصين على نشر كل ما هو قيم. في دار بسمة للنشر الإلكتروني نساند المؤلفين وندعمهم لإيصال إبداعاتهم لملايين من القراء، ونرشدهم إلى آليات فنية تعينهم على تحسين أساليب الكتابة والإبداع. وتقريبا لهذه الغاية تقوم الدار بتنظيم مسابقات متعدّدة، والإشراف عليها مجانا من أجل اكتشاف المواهب الشابة التي تستحق أن تُنشرَ أعمالُها بينَ القرأَة والمثقفين، وذلك تشجيعا لهم على الاستمرارية في الكتابة الإبداع.َ

المحتويات

الإهداء.....6
فائدة لغوية.....9
1- باريس.....10
2- باريس.....16
3- باريس.....21
4- باريس.....26
5- باريس.....32
6- أكادير 37
7- توردانت.....42
8- توردانت.....48
9-تارودانت.....53
10- تارودانت.....59
11- الخميس.....64

12- الجمعة 69
13- الجمعة 74
14- الرياض 79
15- الرياض 84
المؤلف: صالح محمد صالح الهلابي 89

الزّلزال يضرب

صالح محمد الهلابي كاتب روائي سعودي صدرت له رواية (جاري البحث) عن دار الفجر بالقاهرة ولدية العديد من الأعمال الروائية تحت الطبع سوف تصدر قريباً.

تنطلق أحداث الرواية من حياة "ناصر"، طالب دكتوراه في جامعة السوربون، حين تكلفه الجامعة باستكمال بحثه العلمي في مدينة "تارودانت" جنوب المغرب. هناك، يقيم ناصر ثلاثة أشهر، ينغمس خلالها في أجواء المدينة الساحرة، بين التراث العريق والطبيعة الخلابة.

وفي الأيام الأخيرة من إقامته، يستجيب لدعوة من سائقه الذي كان له سندًا خلال رحلته، فيرافقه مع أخته – سكرتيرته – إلى قرية "تفنكوت"، المستكنّة في أحضان جبال الأطلس. لكن ما بدا يوماً هادئاً يتحوّل فجأة إلى كارثة، حين يضرب زلزال الحوز العنيف في 8 سبتمبر 2023. تنهار الغرفة على ناصر، ويُحتجز تحت الأنقاض لساعات مرعبة، قبل أن يُنتشل حيًّا بمعجزة، وينقل بطائرة إخلاء طبي إلى الرياض لاستكمال علاجه... وهناك، تبدأ رحلة جديدة من الأسئلة، والبحث، واكتشاف الذات.

Bassmabook
0021277181493
darbassma1@gmail.com